السيف والقلم: ابن خلدون وإشكالية الحرب

أ.د. فتحي التريكي
صاحب كرسي اليونسكو للفلسفة –جامعة تونس

ملخص:

نلقي في هذا البحث بعض الأضواء على فكرة الحرب في مقدمة ابن خلدون وعلى كيفيات تمظهرها في السلطة والحكم. ويمكن هنا تحديد ثلاث نقاط أساسية لفهم نظرية ابن خلدون في الحرب.

النقطة الأولى للحرب: خضوع الظاهرة إلى الممارسة السياسية.

النقطة الثانية تخص إستراتيجية الحرب وأنواع القتال من خلال أشكال ثلاثة وهي أولا الزحف صفوفا والهجوم الدائم حتى القضاء على العدو وثانيا القتال بالكر والفر. وهو قتال العرب البربر الذي يعتمد الحركة المتواصلة والهجوم والدفاع والهروب. وثالثا التعبئة وفيه يتم تقسيم الجيوش جموعا حسب الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع.

أما النقطة الثالثة فهي تهم الغاية من الحرب ونعني بها الغلبة أو استراتيجية الانتصار.

هكذا مع ابن خلدون ولأول مرة في الفكر العربي والإسلامي، يبتعد التفكير عن النصائح في الحرب ولا يقتصر على السرد ووصف المعارك والفتوحات. ومع أننا لا نجد في نصه إقرارا لاستقلالية هذا العلم، إلا أن هناك محاولة جادة للتجريد والتنظير. فمع ابن خلدون تصبح المعركة حقلا هاما للتنظير يرتبط بحقل السياسة والسلطان وبحقل العمران والمجتمع.

الكلمات الدالة: الحرب، السلطة، الحكم، المعركة، العمران، المجتمع، الإستعمار.

مقدمة:

ليس من باب الصدفة أن يدرس ابن خلدون الحرب دراسة نظرية من خلال تحليل آليات الملك ونظامه؛ فابن خلدون قد قام كما هو معروف الآن، ببناء نظرية متكاملة للدولة وللسلطة تقوم على دراسة النموذج البدوي القبلي وتحليل مظاهر الخلافة وأشكال الحكم، بطريقة استقرائية تستنطق الأحداث التاريخية والتجارب السياسية المختلفة. والحرب تمثل آلة من آليات الملك، بل هي عنصر أساسي للممارسة السياسية.

سنحاول في هذا البحث أن نلقي بعض الأضواء على فكرة الحرب في «مقدمة» ابن خلدون، وعلى كيفيات تمظهرها في السلطة والحكم؛ ومعالجة العلاقة التناوبية بين السيف والقلم في قيام السلطة والمحافظة عليها.

ولكن قبل ذلك، لا بد من التأكيد على أن ظاهرة الحرب قد درست طبعا قبل ابن خلدون، من وجهة نظر علمية تقنية، من قبل كثير من المؤرخين والاستراتيجيين العرب؛ فالوثائق التاريخية والأوصاف الفنية للحروب ووقائعها والتخطيطات التكتيكية ودقائقها، في كتب الأيام والمغازي والفتوحات والتاريخ، لا تكاد تحصى، فهي كلها قد اهتمت بالحروب

وسلاحها ومعداتها ولوازمها وغنائمها ونتائجها. ولكن كل ذلك أيضا، وان كان يستدعي أعمالا نظرية وأبحاثا دقيقة، لا يهمنا في هذا الموضع، لأنها ورغم أهميتها تبقى تسجيلا للوقائع دون انغماس نظري في الأسس ودون محاولة للتنظير. لذلك سوف لن نركز، في دراستنا هذه، على هذه التسجيلات والأوصاف للحرب وأشكال القتال، بقدر ما سنحاول أن نتعرف على الشكل التنظيري الذي اتصفت به الحرب في مقدمة ابن خلدون، وان نسائل المفهوم الاصطلاحي للقتال ومستتبعاته العمرانية والسياسية.

كذلك لابد من التأكيد هنا أن الفلاسفة العرب والمسلمين في العصر الوسيط قد انشغلوا بدراسة فكرة الحرب وتحليل أبعادها الفلسفية والأخلاقية وربطها بالشأن السياسي تارة وبالشأن الديني تارة أخرى. كما نجد عندهم تفكيرا معمقا أحيانا في موضوع صناعة الحرب ووسائلها وكانوا في ذلك يسيرون عامة على منوال أفلاطون وأرسطو؛ إذ نجد ذلك المنوال حاضرا، مثلا، بوضوح عند الفارابي[1] كما عند ابن رشد[2]. ولم يكن مقصد ابن خلدون مقاربة الحرب من وجهة نظر أخلاقية أو فلسفية بالرغم من أنه قد كان متأثرا ببعض التوجهات الفلسفية لنظرية الحرب.

وفي حقيقة الأمر، يمكن تقسيم مقاربة ابن خلدون لمفهوم الحرب إلى حقلين مختلفين، حقل فكري عام : يدرس الحرب من حيث هي صفة من صفات التوحش، تتسم بها طبيعة الإنسان واجتماعيته في الآن نفسه، وحقل سياسي : يدرس فيه ابن خلدون الحرب من حيث هي ظاهرة للممارسات السياسية تابعة لشؤون الدولة.

1. الحقل الفلسفي:

فالحرب «أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل»[3]، وذلك لا يعني البتة وجود فرضية «الحالة الطبيعية» كأصل للوجود الاجتماعي والسياسي للبشر عنده، كما نجد ذلك فيما بعد عند فلاسفة الحق الطبيعي في القرن الثامن عشر بأوروبا. وذلك لأن أصل الحرب عصبية؛ عصبية بعض البشر مجتمعة ضد أهل عصبية أخرى. فـ «...أصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبية فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب»[4].

فالإنسان، في نظر ابن خلدون، لم يمر بحالة طبيعية تتميز بالحروب نحو حالة اجتماعية تسودها القوانين ويدعمها السلام، فليست هناك عنده أوصاف دقيقة لما يمكن أن يكون عليه الإنسان لو لم توجد مجتمعات ولم يكن هناك اجتماع بين البشر. «فالاجتماع الإنساني ضروري» كما يقول ابن خلدون[5] ؛ وهي ضرورة للبقاء بواسطة المحافظة على الحياة والدفاع عنها «بالفكر واليد» كما يؤكد ايضا[6] ؛ واليد «مهيأة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصِّل

1- أبو نصر الفارابي كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، اللجة اللبنانية لترجمة الروائع ببيروت والمعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة 1980

2- ابن رشد "مختصر كتاب السياسة لأفلاطون"، نقل أحمد شحلان، بيروت 1998

3- انظر، المقدمة، الفصل السابع والثلاثون من الباب الثاني "في الحروب ومذهب الأمم وترتيبها". طبعة الدار التونسية للنشر، تونس 1993

4- نفس المصدر، نفس الفصل .

5- نفس المصدر، نفس الفصل.

6- نفس المصدر، الفصل الأول من الباب الأول " في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات ".

له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة والتُّراس النائبة عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك»[7].

هكذا، إذن، جُعل الإنسان ليعيش في مجتمع معين، واجتماعيته طبيعية لأنها، حسب ابن خلدون دائما، فطرة ورغبة طبيعية في البحث عن متطلبات العيش والبقاء بالغذاء[8] من ناحية، وبالدفاع عن حياته من ناحية أخرى؛ وذلك بواسطة المعاضدة والتعاون الذي «.... حصَّل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه «كما يسجل ابن خلدون[9].

من هنا نستطيع القول بأن الحرب طبيعية اجتماعية في الآن نفسه وهي، عند ابن خلدون، أصل الاجتماع بين البشر، وهي في شكلها الدفاعي تمثل عنصرا من عناصر البقاء. كذلك نتبين أن حالة البدو عنده ـ التي تكون حالة اجتماعية عمرانية ولكنها اقرب إلى الحالة الطبيعية ـ هي الأصل بما أن « وجود البدو متقدم على وجود المدن»[10]. لذلك فهي تتسم بالعنف المستمر، طالما لم تتحول إلى حالة الحضر والتمدن، لأن البدو « قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم...فهم دائما يحملون السلاح...وقد صار لهم البَأس خَلقا والشجاعة سجيَّة يرجعون إليها متى دعاهم داع...»[11].

ذلك يعنى أن حالة البدو هي، في أساسها، حالة الحرب والعنف، والحرب هنا لا تعني ذلك العنف المقنن والمنظم بالغايات السياسية والأهداف المسطرة المعروفة مسبقا، بل تعني حالة الفوضى والعشوائية التي تتبلور فيها «طبائع الشر» وعوائد الخشونة والوحشية والعدوان؛ عدوان بعض «على بعض»[12]. أما الحالة الحضرية المدنية فهي حالة سلم ووزع لا تكون فيها الحرب فوضى، بل هي استباع لعمل السياسيين، لان «عدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة»[13]. فطبائع الشر مكبوحة «بحكمة القهر والسلطان».

والملاحظ هنا هو أن حالة البدو ليست حالة تفرد، فالإنسان إذا كان وحيدا بدون حسب ونسب لا يستطيع البقاء وحيدا في العيش، لان المتفردين سيصيبهم حتما الشتات والانقراض. «..فإذا أظلم الحق بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلقهم من الأمم سواهم»[14]؛ لكل ذلك تكون العصبية هي اصل المدافعة والحماية، وهي قوام الملك «بمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوءة أو إقامة ملك أو دعوة إذ بلوغ الغرض من ذلك كله أنه يتم بالقتال عليه...ولا بد في القتال من العصبية...».

7- نفس المصدر، نفس الفصل

8- نفس المصدر، نفس الفصل

9- نفس المصدر، نفس الفصل

10- نفس المصدر، الباب الثاني من الفصل الثالث

11- نفس المصدر، الباب الثاني من الفصل الخامس

12- نفس المصدر، الباب الثاني من الفصل السابع

13- نفس المصدر، نفس الفصل

14- نفس المصدر، نفس الفصل

فالعصبية سواء كانت بصلة الرحم أو القربى أو النسب أو الولاء والحلف هي التي تحمل النفوس على «النعرة» والمدافعة والحماية، وهي التي تهيئ القوم على المقاتلة بصفة عامة، لا سيما إذا كانت هذه العصبية كما يقول ابن خلدون «في الصريح من النسب»؛ أي تلك التي توحد الناس في القبائل المتوحشة وتسير بهم نحو تنظيم أمورهم تنظيما سياسيا يعتمد الغلبة والقوة والبطش، لأن «الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية»[15].

2. الحرب ظاهرة سياسية:

هكذا إذن، نجد في المقدمة تحليلا عميقا للحرب من حيث هي ظاهرة طبيعية تساعد على بناء المجتمع والملك وتلتصق بالعصبية. ولكن الحرب في نظر ابن خلدون تبقى، أساسا، ظاهرة سياسية تابعة لنظام الملك. وقد خصص لذلك فصلين كاملين في القسم الثالث من «المقدمة» الذي يتحدث فيه عن الملك والخلافة ؛ وهما، تحديدا، الفصل الخامس والثلاثون ويتناول فيه قضية التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول، ثم الفصل السابع والثلاثون ويتطرق فيه إلى الحرب ومذاهب الأمم وترتيبها.

ولعل ما يلفت الانتباه في هذا المجال هو صعوبة تناول هذه الإشكالية في المقدمة، لان ابن خلدون حاول الخروج عن المعهود في الكتابات العربية عن الحرب تلك التي تتسم، في غالبها، بالطابع الوصفي التدقيقي للمعارك والمقاتلات، دون أن تصل إلى مستوى التحليل والتنظير ودون أن تربط مفهوم الحرب بالظاهرة السياسية وبالحياة الاجتماعية وبالتفكير الاستراتيجي العام. وابن خلدون، هو من أول المنظرين في الحضارة العربية الإسلامية لهذه الظاهرة التي لا تفهم إلا من خلال ارتباطها بالقلم والسيف، بالنظر الإستراتيجي والعمليات التكتيكية في ساحات الحرب. وقد اعتبر ابن خلدون «علي ابن طالب» المؤسس الحقيقي لعلم الحرب في الفكر الإسلامي.

ومع ذلك لا بد أن نوضح هنا أن الحديث عن الحرب لم يأخذ بعد، عند ابن خلدون، صبغة مستقلة بذاتها؛ بمعنى أن التحليل الخلدوني لظاهرة الحرب لم يكن لفهم الحرب نفسها ولم يكن يهدف إلى معرفة الحرب في نمط تكونها وفي نمط سيرورتها. وفي واقع الأمر، كان علينا أن نترقب كتاب كلوزفيتز «في الحرب»، الذي صدر في أوائل القرن التاسع عشر والذي كان يهدف أساسا إلى تنظير ظاهرة الحرب بالاعتماد على ممارساتها، لكي يصبح للحرب علم قائم بذاته ومستقل له قواعده وطرقه ومسالكه.

ذلك لا يمنعنا من الإقرار بأسبقية ابن خلدون في محاولة تنظير الحرب بالاعتماد على التأسيس الفلسفي من ناحية، وعلى التفكير في كيفيات القتال وتقنياته، فتأثير الفارابي على ابن خلدون كان واضحا؛ إذ أن الفارابي قد عرض في الفصل الربع والثلاثون من كتابه الشهير «آراء أهل المدينة الفاضلة» نظرية القهر في الفكر الاجتماعي السياسي، التي تفسر البقاء والاجتماع لا بالطبع أو بالإرادة، بل بالعنف الطبيعي ذلك أنه «لا يرتبط اثنان إلا عند الضرورة، ولا يأتلفان إلا عند الحاجة». ثم يكون بعد اجتماعهما على ما يجتمعان عليه كأن يكون «أحدهما القاهر والآخر مقهورا».

ولعلنا لسنا نغالي إذا قلنا بأن نظرية القهر الفارابية، التي لابد من التوسع فيها، قد تبين في الأخير مدى تأثير الفارابي على ابن خلدون في تكون فكرة العصبية التي تؤسس الارتباط

15- نفس المصدر، نفس الفصل

المجتمعي بواسطة رابطة الدم والانتماءات العائلية والقبلية. ونحن هنا بهذه المناسبة نعرض فرضية علمية، تتطلب مجهودا علميا لا تتحمله هذه الورقة، وهي أن نظرية العصبية تعود، أصلا، للفارابي الذي قدم لها في الحقيقة معطياتها النظرية، ثم طورها، بعد ذلك، ابن خلدون وجعل منها فلسفة عمرانية.

فالفارابي يستعرض هذه النظرية القائلة بأن : «الاشتراك في الولادة من والد واحد هو الارتباط به، وبه يكون الاجتماع والائتلاف والتحاب والتوازر على أن يغلبوا غيرهم، وعلى الامتناع من أن يغلبهم غيرهم. فان التباين والتنافر بتباين الآباء، والاشتراك في الوالد الأخص والأقرب يوجب ارتباطا اشد، وفيما هو اعم يوجب ارتباطا اضعف، على أن يبلغ من العموم والبعد على حيث ينقطع الارتباط أصلا ويكون تنافرا، إلا عند الضرورة الواردة من خارج، مثل شر يدهمهم، ولا يقومون بدفعه إلا باجتماع جماعات كثيرة. وقوم رأوا أن الارتباط هو بالاشتراك في التناسل، وذلك بان ينسل ذكورة أولاد هذه الطائفة من إناث أولاد أولئك، وذكورة أولاد أولئك من إناث أولاد هؤلاء، وذلك التصاهر».

نستخلص من نص الفارابي هذا أن الرابطة الاجتماعية يمكن أن تكون بالاشتراك في العائلة أو في القبيلة، وان رابطة الدم هي الحافز على الغلبة اجتماعا وسياسة. ولا يخفى علينا أن هذه الفكرة الفارابية هي شرط من شروط تكون مفهوم العصبية الخلدوني، وهي أساس قيام الدولة في النظرية العمرانية. ولعل الفارابي يذهب إلى حد أبعد من هذا عندما يعتبر أن الحرب استتباع لنظرية التغلب والغلبة لأن «الارتباطات» المذكورة سابقا، سواء كان ذلك بتميز «قبيلة عن قبيلة أو مدينة عن مدينة، أو أحلاف عن أحلاف، أو أمة عن أمة»[16]، تؤدي حتما إلى «التغالب» بغية «السلامة والكرامة واليسار واللذات»[1717].

هكذا يرى الفارابي أن التغالب كامن في طبع كل طائفة وبما أن «ما في الطبع هو العدل» يستخلص الفارابي أن «العدل هو التغالب». كما يستنتج من كل ذلك نظرية متطورة في السيد والعبد تقوم على مفهوم العدل الطبيعي؛ لان القاهر يستطيع أن يقتل المقهور ويرديه جثة هامدة. إلا أن ذلك سيؤدي في الأخير إلى «انفراد القاهر بالوجود»؛ أي إلى الوحدة وانعدام الارتباطات الاجتماعية. لذلك سيقوم القاهر بالاحتفاظ على حياة المقهور شرطة أن يتخلى هذا الأخير عن كرامته وحريته، ويصبح عبدا للآخر، وبذلك يكون «استعباد القاهر للمقهور هو أيضا من العدل».

هكذا، إذن، يتحدد المناخ النظري العام لفكرة الحرب عند ابن خلدون من حيث تأصيلها في الفكر الفلسفي الفارابي ومن حيث انفتاحها على المجتمعات العربية التي عاصرها. لكل ذلك تكون الحرب فكرة فلسفية وظاهرة سياسية في الآن نفسه. ولعل ابن خلدون يكون، بهذا المعنى، هو أول من انتبه إلى هذا الترابط بين الظاهرتين ولكنه لم يستطع أن يصل به إلى مستوى المفهوم؛ ليفتح بذلك علما جديدا هو علم الحرب، على غرار ما قام به، بعد قرون من ذلك، الجنرال الألماني كلاوزفيتز، الذي حارب نابليون بونبارت وكتب بعد ذلك كتابا حول علم الحرب واستراتجياته والعمليات المتعددة المتصلة به.

إذا ما أردنا دراسة تقنيات الحرب، في بعدها النظري، عند ابن خلدون سنجد هنا صعوبة في تناول هذه الإشكالية قد تتمظهر في «التململ النظري» الذي طبع تفيره في هذا المجال؛

16- نفس المصدر، نفس الفصل

17- نفس المصدر، نفس الفصل

فلتحديده ظاهرة الحرب نجده مثلا، بعد أن يتحدث عن السيف والقلم في الفصل الخامس والثلاثون من مقدمته، ينقطع فجأة ليتناول بالبحث قضايا تبدو بعيدة، نوعا ما عن الحرب، مثل الشارات والأبهة والبذخ ومظاهرها أو (السكة) (la monnaie) والخاتم وغيرها، أو الفساطيط والسياج الخ. قد يعني ذلك أن ابن خلدون لم يربط بصفة دقيقة الحرب بالسياسة. ولكننا نؤكد أن هذا الفصل هام في نظرية التعبئة التي تصاحب عادة كل إعلان للحرب. ومع ذلك سنحاول تتبع ابن خلدون في ضبطه لظاهرة الحرب ليتسنى لنا معرفة نظريته وطرافتها. ويمكننا تحديد ثلاث نقاط أساسية لفهمها. تتمثل الأولى في تسطير حقل انتماء الحرب، وتتمثل الثانية في استراتيجية الحرب وأنواع القتال، وأما الثالثة فتتمثل في شرح أسباب الانتصار.

1.2. طبيعة الحرب:

كما بينا سابقا تكون الحرب حالة طبيعية : «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان» حسب تعبير الفيلسوف الأنجليزي توماس هوبس، بعد قرنين من الزمن على ابن خلدون فإبن خلدون يؤكد دائما على العنف الطبيعي في البشر سواء جاء هذا العنف في قالب حرب أو قتال أو عصبية أو غزو، وفي كل مظاهر العنف الطبيعي أو العمراني الأخرى. إلا أن العنف في شكله الحربي يتضمن هنا أنواعا مختلفة يحددها ابن خلدون في قسمين : قسم خاص بالحرب العادلة وقسم خاص بالحرب غير العادلة يسميها حروب بغي؛ وحروب البغي على صنفين : الحروب القائمة على الغيرة والمنافسة وهي حروب تقوم بها القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. والحروب القائمة على العدوان وهي حروب وحشية تقوم بها أمم تقتات بواسطة الحرب؛ أي حروب من «جعلوا أرزاقهم في رماحهم» بتعبيره، وابن خلدون يريد من هذا القول التأكيد على أن الغاية في هذا الصنف من الحرب غير سياسية؛ أي أن غاية الحرب هنا لا تكمن في الوصول إلى الحكم والسلطة» بل الغاية اقتصادية معيشية لا غير».

أما الحروب العادلة فهي أيضا على صنفين : حروب الجهاد ويحددها ابن خلدون بغايتها الدينية البحتة، وهي بتعبيره غضبٌ لِله ولدينه. وحروب الدول وغايتها الملك والدفاع عنه والسعي إليه والمحافظة عليه.

ما نستخلصه هنا أن مقياس تحديد ابن خلدون لهذه الأنواع من الحرب يبقى سياسيا أساسا، فالحروب التي تتصل بالسلطة ـ في شكلها الديني أو الدنيوي ـ هي حروب عادلة أو هي الحرب في مفهومها المقبول. أما بقية الحروب الأخرى فهي في نظر ابن خلدون فتنة وبغي. ومما يؤكد هذه النظرة، ويجعل الحرب عند ابن خلدون ظاهرة سياسية، هو ربط السيف بالسلطان، أي جعل الحرب آلة من آليات السلطة[18].

هكذا يعتبر ابن خلدون الدولة جهاز قلم وسيف تحتاج إليهما في نمط تكونها وفي نمط عملها. إلا أنه يعتبر أن تكون كل دولة يحتاج إلى السيف والحرب والعنف أكثر من احتياجه إلى القلم والفكر والأدب، كذلك الشأن في آخر عمر الدولة؛ حيث تضعف عصبيتها.

أما في نمط عملها اليومي فالدولة تحتاج أكثر إلى القلم؛ لا سيما إذا تم الاستقرار (أي في وسط عمر الدولة) وقويت أوتادها. وهنا أيضا يقارن ابن خلدون بين الاستراتيجي صاحب

18- نفس المصدر، الفصل 35

السيف والمثقف الأديب صاحب القلم. ففي هذه المرحلة من عمر الدولة يكون السلطان الأمير محور السلطة ويكون الاستراتيجي المثقف عمادها؛ بمعنى أن السلطة تكون، حسب ابن خلدون، تارة في حاجة أكثر إلى صاحب السيف وتارة أخرى في حاجة أكثر إلى خدمة القلم. والسلطان يعطي الجاه والنعمة والثروة، حسب الاحتياج، إلى هذا أو ذاك، وقلما أعطاها لهما في الآن نفسه؛ بل قلما اعتمد عليهما في الآن نفسه بنفس الصيغة وأعطاهما نفس الجاه والثورة.

2.2. استراتيجية الحرب وأنواع القتال:

لسنا نجد عند ابن خلدون تمييزا واضحا بين الاستراتيجيا والتكتيك، أو بتعبير آخر تمييزا بين مقاربة الأهداف والغايات وتقنيات الحرب. ومع ذاك نجد عنده محاولة للتفكير في تقنيات المعارك وأنواع القتال.

كذلك لسنا نجد بوضوح علاقة فنيات الحرب في الميدان بتطور الأسلحة، بقدر ما نجد غيابا غريبا نوعا ما لتعداد أنواع الأسلحة المستعملة؛ بل كل ما نجد مدونا عنده، في هذا الموضوع، ذكر السيوف والرماح والأنبال واستعمال الأحصنة وإشارة إلى الفيلة والإبل.

ورغم ذلك فنحن نجد وضوحا في تحديد أنواع المعارك وحركة الجيوش فيها ووصف الوقائع، مع التأكيد على نوع محدد للإستراتيجية.

هناك بالنسبة إلى ابن خلدون ثلاثة أنواع للإستراتيجية الحربية حددها من خلال نوعية الشعوب التي استعملتها تاريخيا:

- **الاستراتيجية الاولى**: وهي الزحف صفوفا، ويعتبره ابن خلدون قتال العجم. وهي استراتيجية النظام المحكم والهجوم الدائم حتى القضاء على العدو.
- **الاستراتيجية الثانية**: وهي القتال بالكر والفر. وهو قتال العرب البربر. ويعتمد الحركة المتواصلة والهجوم والدفاع والهروب.

وهنا لابد أن نلاحظ أن الإستراتيجية الأولى هي إستراتيجية سلطة منظمة وموحدة، بينما تكون الثانية للبدو لأن هدف البدو يكمن في الغارة لطلب الأرزاق. وفي هذا الخصوص يظهر ابن خلدون ميله الصريح إلى النوع الأول من الإستراتيجيا، ليس لأن هذا النوع من الإستراتيجيا يعتمد الهجوم ـ فابن خلدون يعتبر أن المحارب الحقيقي ليس المسرع في الهجوم، بل الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف حسب تعبيره ـــ إنما حبذ هذا النوع لأن قتال الزحف تُرتَّب فيه الصفوف التي تمشي قدما فتكون، حسب تعبيره أيضا، اثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو. والمقصود هنا النظام والتقدم وبث الرعب. ففي هذه الإستراتيجية يكون الثبات هو الأساس ويكون المكيث هو الرجل المناسب للمصارعة والقتال. بينما في إستراتيجية الكر والفر تكون الحركة هي الأساس والتسرع (أو السريع) هو الرجل المناسب للقتال.

إلا أن ابن خلدون يعتبر أن هذا النوع الثاني من إستراتيجية الحرب لا يكون صالحا إلا إذا كان هناك مصاف وراثي ثابت يلجئون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف.

-**الإستراتيجية الثالثة**: وهناك نوع ثالث من الإستراتيجية في الحرب أقرب إلى إستراتيجية الزحف منه إلى إستراتيجية الكر والفر، ولكنه يعتمد أكثر على الحركة، وهو التعبئة؛ وفيه يتم تقسيم الجيوش جموعا حسب الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع : هناك عساكر المقدمة تتميز بقائده ورايته وشعاره ثم الميمنة والميسرة ثم الساقة، أي عسكر الوراء، ويقف الملك (أو الجنرال) وأصحابه في الوسط وهو القلب.

ويرى ابن خلدون أن هذا النوع يصلح للجيوش الكثيرة المنضوية تحت إمرة ملك واحد.

3.2. الغاية من الحرب:

أما النقطة الأساسية الثالثة فتهم الغاية من الحرب، ونعني بها الغلبة أو إستراتيجية الانتصار.

طبعا سيكون هدف كل حرب هو الانتصار والغلبة. لذلك فهي تقوم على العنف والخدعة وتفترض ثلاثية محددة : العنف والسياسية والاحتمال. إذ أن الزحف، كما بينا، واستعمال كل أنواع الأسلحة والهجوم والقتال كلها حيوية للنجاح والانتصار في الحرب. ولكن هناك الخدعة واستعمال جميع أنواع الفكر السياسي من إعلام وشهرة. وهناك أيضا ما يسميه ابن خلدون بالبخت والصدفة.

فالوصول إلى الغاية والظفر بالحرب وأسباب الغلبة فيها ما هو ظاهر وما هو خفي، فالأسباب الظاهرة تهم الإستراتيجيا بصفة عامة، وهي إعداد العدة للحرب، من تدريب الجيش وتنظيمه وصناعة الأسلحة وجودتها والتحضيرات الاقتصادية والسياسية والفكر الاستراتيجي؛ أي ما يسميه ابن خلدون صدق القتال. أما الأسباب الخفية فهي على نوعين:

-أمور إنسية مثل خداع البشر وحيلهم ويدخل في هذا الباب كل الأمور التكتيكية لخوض المعركة الحاسمة أو أم المعارك.

-أمور غيبية (أو سماوية). وابن خلدون يعطي أهمية قصوى للأمور السماوية، ليس اعتقادا راسخا منه في وجودها بل تأكيدا على تأثيرها على الجيشين المتحاربين على حد السواء؛ لأنها كما يُؤكد لنا تُلقى في القلوب فيستولى الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم، فتكون الهزيمة لهؤلاء والانتصار للآخرين.

على أنه إذا اجتمعت أسباب الانتصار الظاهرة وأسبابها الخفية تكون الغلبة المجتمعة، مهما كان عدد الجيوش ومهما عظم شأنها؛ لأن في تلك الحالة تكون العصبية موحدة للجميع موجهة للجيوش ومجمعة للثلاثية التي تحدثنا عنها: العنف والحيلة والصدفة.

الخاتمة:

بناء على ما سبق من تحليل يمكننا استنتاج معطيات هامة حول فكرة الحرب عند ابن خلدون ونلخصها في النقط الآتية :

النتيجة الأولى: هي أنه مع ابن خلدون تتراءى لنا شروط قيام علم الحرب من وجهته النظرية. **أولا** من خلال تحديدها من حيث هي ظاهرة سياسية تابعة لشؤون السلطان. **ثانيا** من خلال تحديد القتال وبيان أنواعه وكيفياته أي من خلال نظرة تكتيكية للحرب. **ثالثا** من خلال تحديد أسباب الانتصار والغلبة في ثلاثية متلاحمة العنف والحيلة

والصدفة.

النتيجة الثانية: مع ابن خلدون ولأول مرة يبتعد التفكير في الفكر العربي عن النصائح في الحرب أو السرد ووصف المعارك والفتوحات. ومع أننا لا نجد في نصه إقرارا لاستقلالية هذا العلم، إلا أن هناك محاولة جادة للتجريد والتنظير. مع ابن خلدون إذن تصبح المعركة حقلا هاما للتنظير يرتبط بحقل السياسة، من حيث ارتباطه بالسلطان وبحقل العمران والمجتمع، بارتكازه على العصبية التي هي في الأخير الضامن للغلبة والانتصار.

وفي الأخير لابد من ملاحظة أن ابن خلدون قد تفطن إلى ما يحوم حول المعركة من أشياء، لا تفهم ظاهريا، كالحيل والخداع والشهرة والصيت. وما يلفت الانتباه أيضا هو أن ابن خلدون يعتبر، عن صواب، أن الإخبار والأخبار هامان للهزيمة والنجاح. وهذه النظرة تكاد تكون عصرية، لان الحرب هي قبل كل شئ حرب إعلام تعتمد الخداع والصيت والإشهار.